

النقد..النسق..التواصل

قراءة في مفهوم "العقل التواصل" ليوغن هابرماس



أ : اليامين بن تومي

جامعة سطيف

ملخص

عملت النظرية النقدية على إنقاذ العقل من اللاعقلانية وذلك حينما اتخذ: "أصحاب النظرية النقدية من النقد أداة لتغيير المجتمع من جذوره وللكشف عن اللاعقلانية التي تمخضت عن العقل ذاته، لم يكن رفضا للعقلانية كما قد يبدو ذلك من القراءة السطحية لأفكارهم بل كان في الحقيقة دعوة إلى مزيد من العقلانية التي تدرك التغيير والاختلاف بدلا من الوحدة والتوحيد"¹

هذا العقل لا يمكن أن ندركه جملة واحدة، وإنما يتم تقصيه من العناصر المتحولة في التاريخي، من طبقات المعنى التي يختزنها، فهو إذا: طبقات تكونت في التراث الغربي، وهو في الناتج التاريخي خزين العصور الإستميتة التي صاغت البنى الخطابية المتغايرة مركزية وهامشية، وهي بنى منفصلة، عبارة عن صفائح تكتونية، كل مرة تعود الصفيحة/الطبقة المعرفية في شكل جديد من خلال ما سماه هيدجر "le cercle du principe de maison"

Résumé

La théorie critique a œuvré pour sauver la raison de l'irrationalité quand ses théoriciens ont utilisé la critique comme un moyen pour transformer radicalement la société et pour montrer l'irrationalité qui s'est jaillie de la raison elle-même. Ce n'était pas un rejet de la rationalité comme cela puisse paraître si l'on se contente d'une lecture superficielle de leurs idées mais c'était en réalité un appel à plus de rationalité qui reconnaît l'expression et la différence au lieu de l'unité ou de l'isolation

Cette raison ne peut pas être perçue d'un seul coup mais elle est recherchée à partir des éléments évoluant historiquement et des couches de sens qu'elle emmagasine. La raison est donc un ensemble de couches qui se sont formées dans le patrimoine occidental et elle est le résultat des époques épistémologiques qui ont fondé les structures discursives changeantes centrales ou périphériques. Ce sont des structures séparées sous

forme de strates tectoniques et à chaque fois c'est une strate/couche scientifique qui revient dans une nouvelle forme selon ce que Heidegger appelle : « Le cercle du principe de la raison. »

مجال المبدأ العقلي-

هابرماس ؛ من نقد العقل الأداتي إلى تثبيت العقل التواصل :

لا شك أن هابرماس في صياغة نظريته التواصلية انخرط في نقاش فلسفي متشعب مع الطروحات الفلسفية التي سبقتها لأنه كما وصفه أحدهم تميز : " بشراة متعددة الاختصاصات ² هذا التعدد مكن للفيلسوف أن تكون له رؤيته الخاصة الناتجة عن التفكير مع الطروحات وضدها في آن واحد .

ويكون هابرماس في تصور "جورج سيمل" قد استوعب نماذج الفلاسفة الذين جعلهم على أربعة أصناف: "الصنف الأول ينصت إلى دقات "قلب الأشياء" و الصنف الثاني فقط إلى دقات "قلب الإنسان" أما الثالث فإنه ينصت إلى "قلب المفاهيم" في حين أن هناك صنفا رابعا هو صنف أساتذة الفلسفة الذين لا يستمعون إلا إلى "قلب النصوص" ³ ليس من السهل تتبع المسار الفلسفي لهابرماس فقد قدم نقدا جذريا لكل الأنساق الفلسفية المشخصة في أسماء محددة في تاريخ التفلسف الغربي وفي اتجاه آخر قام باستثمار المنعطف اللساني لتحقيق تلك التوليفة التي سماها : " بنظرية الفعل التواصلي " la théorie de l'agir communicationnel لذلك مرّ مشروعه بنقطتين مرجعيتين :

-الوضع الفلسفي لأسئلته .

-القول الحداثي للفلسفة بتخريجها ضمن فلسفة التواصل .

فهناك في الاعتبار المنهجي مجموعة كتب تأسيسية تناصّ معها هابرماس ، نحتكم لها في فهم المسار الفلسفي لهابرماس حيث أن طريق الفيلسوف مشبع بالكفاح الذي أراد أن يتجاوز أو يقوض اليقينيات أو الكليانيات النسقية التي طالما اقتاتت عليها الفلسفة . وفي هذا المسار كان طرحه مهموما بتلك الآراء التي بسطها فلاسفة المدرسة في الطروحات الكبيرة : جدل العقل لكل من هوركهايمر و أدورنو ، الجدل السلبي لأدورنو ، الإنسان ذو البعد الواحد لهربرت ماركوز .

وقبل أن يتعاضد مع الطروحات ليخرج نظريته العقلانية التواصلية ، قام بنقاش لأسس المشروع الفلسفي الغربي ، لذلك فإن الفلسفة في تصويره لا بد أن تقوم بمهام محددة منها : " أولا أن تناضل داخل العلوم لتشجيع الاستراتيجيات النظرية الأكثر قوة . كانت المناسبة ملائمة ، وذلك لمواجهة التجزئية التجريبية . ثانيا : على الفلسفة أن تقوم بعملية كشف

ما هو كوني في الفكر الذي يتكون بواسطة العلوم ،والذي يستهدف معرفة موضوعية كما هو الشأن بالنسبة لكونية المبادئ الموجهة للممارسة العقلانية للحياة ،والمؤهلة لكي تكون مبررة وليست مشروعة فقط "4. لذلك فالفلسفة تعمل دوما في تصويره على إعادة البناء ؛لذلك يطرح تساؤلا دقيقا في كتابه " ما بعد ماركس "قائلا ؛" أليست الفلسفة بالأحرى قوة إنتاجية . أم أنها وعي زائف" 5 حيث عملت التغييرات الثقافية البورجوازية في المجتمع الغربي على تغيير دور الفلسفة حيث لم تصبح الفلسفة هي الواجهة الخلفية للتصور ،وإنما حل محلها التصور العلمي والتقني يقول ؛" منذ أن أصبح التطور العلمي -التقني المحرك الحقيقي لتوسع القوي الإنتاجية فرضت التصورات العلمية نفسها بأكثر قوة مثلا في نجاح الوضعية ، لم تمارس الوضعية التقليدية حتي القرن العشرين تأثيرا هاما على الفلسفة الجامعية فحسب لأنها تطبع أيضا ماركسية الأهمية الثانية " 6

وذلك لسبب رئيسي أن ؛" المادية التاريخية كان بوسعها اعتمادا على منهج صارم حل كل المسائل التي كانت آيلة حتي ذلك الوقت إلى التفكير الفلسفي "7 وتلك الرغبة التي تخزنها العلمية لإحلال العلم مكان الفلسفة ، لأن التفكير الفلسفي يحرر العقل من ذاتيته ومن التباسات

الإيديولوجي نتيجة النقد المتواصل لكل السلط السياسية الانطباعية التي تسكن التوجه العلمي ، حيث لا يمكن أن ينفك العقل التقني /الأداتي عن مضمونه السياسي ؛" الفعل العقلاني الهدف هو طبقا لبنيته ممارسة الضبط .لذلك فإن "عقلنة" علاقات الحياة حسب معيار هذه العقلانية تتساوى بمعناها مع ما أسسته سيطرة لا تصبح معروفة بوصفها سيطرة سياسية ؛إذ لا يتخلى العقل التقني لمنظومة اجتماعية للفعل العقلاني الهدف عن مضمونه السياسي" 8

فالتقنية عملت للسيطرة على الطبيعة والإنسان ، ولذلك فإن العقل التقني /الأداتي هو عقل استبدادي في نظر "هابرماس" بل في نظر فلاسفة فرانكفورت حيث يقول "هاربرت ماركوز" ؛"إن عالم الحضارة الصناعية المتقدمة هو عالم كلي استبدادي يملك القدرة لا على وأد أي محاولة لمعارضته ونفيه فحسب ،ولا على تميع وتذويب ودمج القوى الاجتماعية التي يمكن أن تعارضه فحسب ، بل أيضا على استنفار وتعبئة جميع طاقات الإنسان الجسدية والروحية وجميع القوي الاجتماعية للذود عنه وحمايته وهنا بالتحديد يكمن دور السياسة " 9 يتيبن أن "هابرماس" ربط تقدم الفلسفة بربطها بالأفق السياسي للنقد لذلك يضع تصورا دقيقا للفلسفة يقول ؛" -النضال داخل العلوم من أجل تطوير الاستراتيجيات النظرية الأكثر

صلاية فيها كلما برزت لمواجهته التجزيئية والاستقرائية -الكشف عن شمولية الفكر ، نقد فلسفة الذات -تجاوز فلسفة الأصل وتشجيع هوية المجتمع وأفراده "10.

إن انتقاد هابرماس لفلسفة الذات /الوعي يصيب مشروعه بطابع حوارى خلاق يُماحك من خلال تجاوز الإحراج المعرفي للحدائث الغربية التي بناها العقل الأنوارى، وأصبح من سماتها التعصب للذات ، وهونوع من التبرير الإيديولوجي الأداة للمركزية الغربية على السيطرة في حين أن هابرماس ينزع إلى تحرير العقل من هذه الأوهام التي ترمي بالإنسان في أوهام الأسطورة

ولعل القيمة التحريرية للإنسان تخلصه من آلية السيطرة التي تسكن المعرفة العلمية التي بدأت بالسيطرة على الطبيعة لتنتقل للسيطرة على الإنسان .

وعليه فإن القدرة النقدية والتأملية تمكن الإنسان من فهم ذاته وتشكيل رؤية عميقة بها وكذلك الدخول في علاقات اجتماعية تعمق من هذه الرؤية من خلال انخراط الذات مع غيرها .

لذلك فعلاقة المعرفة بالمصلحة عند هابرماس متعددة وهي ثلاثة مجالات : " من أجل ثلاثة مقولات من عمليات البحث يمكن البرهنة على علاقة نوعية من القواعد المنهجية المنطقية ومن المصالح الموجهة للمعرفة . وهذه هي مهمة نظرية علم نقدية تتملص من أحابيل الوضعية . في بداية العلوم التجريبية تدخل مصلحة معرفة تقنية في منطلق العلوم الهرمينوطيقت والتاريخية تدخل مصلحة معرفة علمية وفي منطلق العلوم المتوجهة نقديا تدخل مصلحة المعرفة المحررة تلك التي تشكل كما رأينا بصورة غير معترف بها أساس النظرية التقليدية "11. لذلك حدد على "عبود المحمداوي" علاقة المعارف/ الفواعل وفق التصنيف الهابرماسي والمجال المعرفي لكل حقل على ثلاثة أصناف :

1- في مقابل العالم الطبيعي ، ينتج الفعل الأداة /العلوم التجريبية .

2- في مقابل العالم الاجتماعي تتجلى فاعليتان عقلانيتان ؛

- الفاعلية الاستراتيجية

- الفاعلية التواصلية

3- فاعلية التأمل والتحرر.12

تمكن العقل الأداة من الدفع المنهجي للأنوار حيث مجد التنوير العقل وكان هدفه " تحرير الإنسان من التعصب والخوف ومن السلطة وتجريد العالم من سحره القديم لصالح المعرفة العلمية هذا التنوير أصابته أشكاله ترجع إلى مصدرين :

1- النزعة العلمية أو الوضعية التي حددت العلم بوقائع معينة .

2- هو العقل الأداتي غير النقدي للعلم الذي اعتمد على الشكلائية ، فالعلم كمنهج تحليلي لا يستطيع أن يضفي معنى أو قيمة على شيء غير قابل للقياس وغير خاضع للضيغة الرياضية¹³ فهذه العقلانية الأدائية التي اختزنت دلالة السيطرة والهيمنة دفعت هابرماس إلى إيجاد بديل يتجاوز هذا المطب البنيوي للعقل الغربي لإعادة دفع خطاب المعادلة نحو مراجعة جذرية لأسئلته الموضوعية ضمن أطروحات الوعي التي تجعل العقل العلمي أساس سلطة القهر الذي مارسها لذلك فالعقلانية الأدائية رسخت عقيدة الذات بقدرتها على توفير السعادة الموهومة التي جعلت الفرد تابعا سخيضا لإرادة الآلة ،ونقلت الإنسان من : " مصدر اليقين من الذات المفكرة إلى الذات المدركة حسيا ، وفي هذا المجال تمدنا الملاحظة العلمية باليقين وتراجع الوظائف التلقائية للفكر"¹⁴.

لذلك فإن ما يكفل المراجعة الجذرية لمفهوم العقل وتخريجه من جديد هو نقل العقل من النكوص على الذات /اليقين إلى : وظيفية التفاعل والحوار مع العلوم الأخرى ، لقد أراد أن يعيد تشكيل النظرية عن طريق إعادة بناء العقلانية الاجتماعية فقدم ما أطلق عليه : " العقلانية التواصلية في مقابل العقلانية الأدائية التي هاجمها الجيل الأول من أصحاب النظرية النقدية"¹⁵.

وهكذا ينحو هابرماس نحو تجنب العقل من الوقوع في الأسطورة كما حصل للذين رفضوا التقنية فوقوا في أحضانها يقول : " وهكذا فإن البشرية وهي تدأب على الابتعاد عن الأصول بسيرورة الأنوار على صعيد التاريخ الكلي ، لم تتحرر من تكرار الانفعال للأسطورة إن العالم الحديث المعقلن بشكل كامل ، لم يتخلص مع ذلك من السحر الذي يحمل لعنة التشيء الشيطاني والفرديّة المهميّة"¹⁶

لذلك حاول هابرماس الوقوف على اللاعقلانية التي باتت تصنع المشهد الحداثي نتيجة سلطان التقنية على العقل، حيث يعتبر أن المجتمعات الرأسمالية تعطل وظيفية العقل لذلك يري أن فهم طبيعة الحداثة الغربية تجعلنا في أفق الأسئلة الفلسفية للحداثيات الكبرى: هيغل ، نيتشه ، هيدجر ، فوكو ، دريدا ، غادامير..

يعتبر هيغل في تصور هابرماس أول من رسخ فكرة القطعية مع الماضي وتشبيته لفكرة الأزمنة الحديثة ، وتتميز هذه البنية الزمنية بما يدعو بالذاتية يقول : "إن الحرية هي بشكل عام مبدأ العالم الحديث ، واستنادا إلى هذا المبدأ تنمو كل الجوانب الأساسية المعطاة داخل كلية الروحي للحصول على حقوقها "¹⁷. بل إن أهمية هيغل بالنسبة لهابرماس

أن جعل الحداثة تنظر للمستقبل من خلال نزعة الجدة وقيمة الحرية التي تحملها لذلك فالحداثة مع هيغل أصبحت تكتسب خاصية تاريخية لا أسطورية و لا طوباوية وحينما تنفتح الحداثة على الوعي فإنها تعزز

قيمة الحب والحياة الحاضرين على الاستمرار مما يجعل الذات تنخرط في هذا الفعل وتدخل في شبكة من العلاقات التواصلية يقول: "إن هيغل في تصديه لسلطة العقل المتمركز على الذات يدعو السلطة الموحدة للعلاقة بين الذات والتي تنجلي من خلال مفاهيم الحب والحياة إنه يضع مكان العلاقة التفكيرية بين الذات والموضوع علاقة تواصلية بالمعنى الواسع بين الذات "18. وهذا ما يحقق المعاصرة أو يدفع التجديد في الحداثة التي تبقى معاصرة لوعياها كما أن النزعة النقدية عند هابرماس تأثرت بالصوغ العقلاني "لماكس فيبر" فهي عنده على ثلاثة مجالات: " مجال الواقعية الموضوعية العلمية ومجال المعايير والمشروعية ،و أخيرا مجال القيم والدلالات الرمزية وقد حاول هابرماس إعادة صياغة هذا البناء العقلاني الاجتماعي فأصبحت شروط السلوك العقلاني في رأيه لا تقتصر على المستوى المعرفي الأداتي بل تمتد أيضا إلى مجال الأخلاق العلمية "19.

هذا التفسير الغائي للحداثة من منظور ماكس فيبر جعل هابرماس يتجاوز ذلك إلى إعادة بناء المستخلصات النظرية للحداثة ،ولكن بشرط صياغتها وفق مفهوم جديد للعقل التواصلية مما جعله يحدث نقلة مهمة في التوصيف العام للنظرية ،وهنا نجد أن هابرماس تخلص من عقدة المفهوم العقلي الذي لم يعد جوهر في ذاته: " إن مفهوم العقل عند هابرماس يسقط من حسابه أية مسألة جوهرية ويتعبير آخر إن العقل عنده لم يعد جوهر سواء أكان هذا الجوهر موضوعيا أم أداتيا بل صار محمولا ، ذلك أنه ونتيجة لتأثيرات المدرسة التحليلية عليه رأى أنه سيكون من الحكمة البحث فيما هو عقلاني عوض البحث في مفهوم العقل وعليه ينتقل الاهتمام المركز إلى العقلانية بدل التركيز على العقل في شكله المجرد "20.

هذا التقسيم لمفهوم الذات والعقل دفع هابرماس حقيقة إلى الوقوف بشكل منهجي متعدد على ترميم النظرية النقدية ودفعها باتجاه منعطف جديد ،وحاولت النظرية النقدية تحرير العقل من نفسه وبالتالي تحرير الإنسان المقهور من اللاعقلانية الجديدة التي رسخها العقل الأداتي لذلك لم يجد أنصار المدرسة إلا الجمال والفن كمخلص ومنقذ للعقل . ويعتبر هابرماس العقل الأداتي هو أكبر: " دليل على ظاهرة التمرکز حول العقل العلمي التقني ويبين كيف أن حركة التصور العلمي في عصر الأنوار أدت إلى ظهور هذا

العقل ويوضح الأسس التي أدت لظهور العقل الأداتي ومنها الآليات التي وضعها وأرساها النظام الحديث أو بالأحرى المجتمع الحديث " 21. لذلك يقترح حلا جذريا لهذا التمرکز وذلك بما أسماه العقل التواصلي : " الذي يقوم على تنشيط التواصل وقيمة الإنسان في المجتمع، فالعقل التواصلي هو المخرج من هيمنة العقل الأداتي " 22 وتنطلق نظرية الفعل التواصلي مما يسميه عقلنة المجتمع وعقلنة الفعل وذلك بتحقيق التواصل في العالم المعيش وتفعيل العلاقة البين ذاتية بين المتلفظين الاجتماعيين.

لذلك فالحدثة الغربية من وجهة نظر ماكس فيبر لم تهتم بهذا الجانب بل كانت أداتية " 23 ويعود هابرماس ليحاول استنباط عقلانية تواصلية تضبط الممارسة الأداتية التي أضعفت وأصرت العلاقات الاجتماعية، وهابرماس محق في محاولة البحث عما يضبط العقل الأداتي الوظيفي داخل حقله الطبيعي ، وهو يرى أن المعيارية التي تتبلور صيغها : " في إطار العقلانية التواصلية هي الكفيلة بواد الهوة السحيقة التي تفصل بين عالمنا و الأنساق " 24 فالمرجعة الأخلاقية و الاجتماعية أملت على هابرماس ترتيب كل العلائق في الحياة الغربية خاصة بعد أن فقد الدين سيطرته على الإنسان كليا وعليه : فالفلسفة باتجاه المنعطف تعمل دوما على تجاوز إحراجاتها الكبرى وعلى تغيير المنظورات إلى نوع من المساءلة الجذرية واللعب على الخيارات المنهجية ، وإعادة اختراق للمرجعيات و انتهاك للمدونات لقيام مشروع فلسفي تواصلي يؤسس لمطلب يقوم في عضد تصويب النظرية النقدية و يكون إضافة للصيرورة الفلسفية للعقل الغربي .

وعليه فإن تبينة النقاش الفلسفي صورة أنطولوجية وحاجة ملحة عند هابرماس تحقق الفاعل باعتباره أس الظاهرة الاجتماعية فإذا كان الفلاسفة الإغريق أحالوا إلى كونه عاقلا والفرنسيون علقوه على كونه مثقفا فإن منزع المنعطف اللغوي أحاله على التواصل و الأخير : " أصله لاتيني والتواصل أي كائن في علاقة. ظهر في اللغة الفرنسية في نصف القرن الرابع عشر و دل في تلك المرحلة على "شارك مع " و استمر استخدامه إلى القرن الخامس عشر ليدل على فعل المشاركة ، تقاسم اثنين أو أكثر ليتطور تدريجيا مع القرون التالية ليعني وسائل الاتصال سواء النقلية أم الإعلامية " 25 وعليه : " فالتواصل يعني عملية انتقال من وضع فردي إلى وضع اجتماعي وهو ما يفيد " اتصل " الذي يتضمن الإخبار و الإبلاغ و التخاطب " 26 و التواصل خاصية المجتمع البشري لتحقيق التفاعل والدوران الذي يؤدي إلى تحقيق المصالح وتفعيل الحياة و الدال على تعقد العلاقة التواصلية هو الانفجار الرهيب في وسائل الاتصال .

إنه تجاوز للمضمون التقليدي لبنية الكلام ، نوع من التدوين الجديد نحو خلق تضاعف جديد للإنسان الرقمي / الافتراضي الإنسان المشارك لغيره هنا تندثر الرغبة الذاتية لصالح الجماعة المتخاطبة المتحاور لتعبر عن الكوجيتو الجديد " الفضاء العام " l'espace public من خلال "التواصل مع" أو جعل الفرد يحيا مجتمع التواصل الذي يعكس علاقات الحوار التبادل²⁷ . والتواصل لا يكون من خلال تفعيل الأطراف المتحاور ضمن فضاء محدد مع اختلاف الوضعيات المنظورية التي تؤدي إلى التواصل " وبالتالي لا يمكن أن نفكر داخل المجتمع الحدائي إلا من خلال التواصل ذاته فهو المضمون الكلي للحدث لتجاوز الإحراجات التقنية والإحصائية للعقل الأداتي نحو تفعيل إرادة النقد الكامنة في المضمون التاريخي للتنوير الذي انتكس نتيجة تشييء العقل نحو تخارج العقل من خلال فعل التواصل ذاته ؛" لو حاولنا مبدئيا أن نتبين الاستراتيجية التي يريد هابرماس أن يضعنا على سكتها من أجل استشعار مقاربتنا ما للتواصلية كما يترسمها فكره، فهي إعادة اكتشاف مسار العقلانية في آفاقها النظرية كما في إنتاجاتها الرئيسية عبر المدارس الحديثة والمعاصرة فالتواصلية ليست في النهاية إلا استراتيجيات تلك المدارس الفلسفية على طريق تحديد لاستراتيجية العقلانية ذاتها لأن العقلانية هي جهد التواصلية لتحقيق ذاتها²⁸.

وهنا يتحول النقد على ذاته فيما يشبه مراجعة جذرية للموروث الماركسي الهيجلي لينخرط في صميم الدفع الذي آل إليه مع أصحاب النظرية الاجتماعية. وبعد "هذا الرصيد يتعين فهم المجتمع المعاصر بحسب هابرماس كترواح لصيغتين من الاندماج الاجتماعي ؛ النسق من جهة والعالم المعيش من جهة أخرى " ²⁹. فما هو النسق ؟

جاء في القاموس أن مصطلح النسق يحمل دلالات متعددة، لكن الوقوف على معناه قد يحيل إلى سياقين فقد نعني به النظرية Théorie وقد يقصد به إطارا أكثر عمومية في إطار ما يسعى

بنظرية الأنساق³⁰ أو النسق منظورا إليه على أنه مجموعة خطابات Le système comme forme de discours . ولعل النسق باعتباره خطابا يحلينا على شبكة معقدة داخل اللغة، ذلك أنه يحلينا إلى النظام الذي يشترط توارد اللغة ضمن علاقات منسجمة ومتسقة ذلك أن التواصل: "بين الكائنات البشرية يتم عبر أنساق مختلفة وأن هذه الأنساق إما بسيطة (تتوسل قناة واحدة) أو مركبة تتضافر فيها قنوات مختلفة لغوية وغير لغوية³¹ حتى يحصل البلاغ الذي تتم به المفاهمة بين المتخاطبين، لذلك فأنساق التواصل أي تواصل يقوم كما يقول أحمد المتوكل على أربعة أركان أساسية.

أ- انتقاء النمط التواصل و إطاره العام (المركز الإشاري، الأسلوب...).

ب- وتحديد القصد التداولي (أخبار، سؤال، وعد، وعيد، أمر...).

ج- وانتقاء الفحوى الدلالي وإغراء تحذيره الذي يلائم القصد.

د- وصياغة القصد والفحوى في بنية صورية مناسبة³²

ولعل الموضوع الذي نحن بصددده يقف في أسس التواصل بين النص باعتباره بنية خطابية، محمولة ضمن شبكة العلاقات التفاعلية مع القارئ/الناقد حيث لا يمكن فصل النص عن نسقه الاجتماعي، المولد للقيم الزمانية والمكانية حيث أن "النسق الجزئي" جزء لا ينفصل عن الأنساق الكلية وهي ما أطلق عليه تالكوت بارسنز ونيكلاس لومان talcottbarsons et Nicolas luman بالنظرية العامة للأنساق حيث يمكن قراءة هذه الأطروحة على الشكل التالي:

"الأطروحة رقم 1 - ترى أن الأنساق الاجتماعية تنشأ عن التواصلات وتتكون بشكل خاص من التواصلات وتعيد إنتاج نفسها وتحافظ عليها من تلقاء نفسها على أساس التواصلات. الأطروحة رقم 2: تقول إن التواصل هو انتماء ثلاثي أوجه: الرسالة والمعلومة والفهم. الأطروحة رقم 3: تنتج عن الأطروحتين رقم 1 و2، فالأفراد (الفاعلون والموضوعات) لا يشكلون جزءا من التواصل ولا من الأنساق الاجتماعية، ولكنهم ينتمون إلى وسط الأنساق الاجتماعية، أي ينتمون بذلك إلى التواصل"³³.

فهذه النظرية لها ميزة هي أنها تجميع للنظر بالعمل أو إيراد للنص والفعل ضمن فضاء الممكن الثقافي* ذلك: "أنه فضاء مبني Construit على شكل نموذج نظري يمثل كونا نهائيا من الممكنات الثقافية/إشكاليات كبرى، مرجعيات ثقافية، وخطابات، وأطروحات، ومذاهب، ومناهج أعلام، ثم الاعتراف بهم كمناورات للذكر والعلم والفن والثقافة، كونه يوجه بحوث الفاعلين المنخرطين فيه باحثين، مفكرين، فلاسفة، فنانيين (...) ولذلك يمكننا أن نقول مع بورديو إن فضاء الممكنات الثقافية، قبل التاريخي عن الفاعلين فيه والمتعالي عليهم والموجه لبحوثهم وتفكيرهم وإنتاجهم يشغل بوصفه نسقا من الروابط (...)"³⁴

هنا ندرك أن طبيعة النسق دينامية حيوية تأخذ مسارها في الترابط بمجموعة من الموجهات الأساسية والنظرية، والفاعلين الأساسيين في تركيبة محددة بناء على وجهة النظر التي ترسم مسار الخطاب حيث لا يمكن أن ينطلق التواصل من الفراغ فاليد من توافر إشكالية تكون المنطلق حيث أن الفاعل بنية مهمة ومشروطة في انتشار هذا النسق فهو متأثر به ومدافع أو معارض له، ولذلك تكون جملة الأنساق الفرعية وهي الأنساق المتحوّلة

بنتيجة التحول الإيديولوجي السائد في المجتمع حيث النسق بنية احتمالية متفاعلة بين المتخاطبين ذلك: "أن موضوع التفكير دائما طبيعة بشرية بمعنى أن التفكير ذاته من الواقع البشري دائما ليطمطر زمنيا في شكل خطابات..."³⁵ ليس بالضرورة أن تكون متجانسة...

ويعتبرنا لكوت بارسنز واحدا من كبار الاجتماعيين الذين نظروا في النسق واعتبروه الإطار النظري العام أو ما أسماه "بالنظرية الطوعية للفعل"³⁶ باعتبار الفعل هاما في تمثيل الخطاب وقد أشار فوكو إلى ما أسماه la théorie verbe ويعرف الفعل بأنه الشرط الضروري لكل خطاب، وحيث لا يوجد فإننا لا نستطيع القول وبأي حال من الأحوال أن هناك لغة³⁷ والفعل يستلزم متضمنا داخله الفاعل باعتباره حامل الخطاب.

وهنا لتشيد النسق/ النظرية يشترط "شميدت" شروطا ثلاثة هي:

1- يجب أن يعبر عن البنية الداخلية.

2- يجب أن يكون له حدود قارة معترف بها من طرف الفاعلين.

3- يجب أن يكون مقبولا من طرف المجتمع ويؤدي خدمة للمجتمع لا يؤديها نسق آخر³⁸ ويعتبر كل من نيكولاس لومان وشميدت وتالكوت بارسونز أن النسق الاجتماعي هو المهيمن على كل الأنساق ذلك أن الأنساق تتواصل فيما بينها غير أن النسق الاجتماعي؛ "يستلزم في تصور بارسونز ثلاثة أنساق أخرى، تستلزم فاعلا يرمي إلى الحصول على الحد الأقصى من الإشباع (نسق الشخصية) وتستلزم بقدر ما يتعلق الأمر بالمجتمع نسقا من القيم له انتشارا واسعا، بحيث أن هذه القيم تمنح التماسك للمعايير المختلفة المرتبطة بمختلف أدوار المكانة (النسق الثقافي)، وأخيرا، تستلزم وجود بيئة على المجتمع أن يتكيف معها (النسق العضوي)"³⁹

ومفهوم "النسق" عند تالكوت بارسونز يحيلنا إلى مفهوم النظرية ذلك أنهما مفهومان متداخلان بمعنى السياق نجد كلمة "نسق" système تقترب أكثر وترادف لفظة نظرية "théorie" أو أن النسق كشكل من أشكال الخطاب النظري le système comme forme de discours ولهذا؛ "ليس من الممكن إعطاء تعريفات جامعة ومحددة للفظتي نسق أو نظرية، لأن هاتين اللفظتين استعملتا في كميات مفاهيمية معانيمية مختلفة، ولكن في الأعم الغالب يحددان ضمن الاستعمال المنوط بهما"⁴⁰

فالنظرية متعلقة بالنظر بمعنى التفكير، وتمضي النظرية عند بارسونز فيما يقول جبروشر: "تشبه الصناديق الصينية حينما تفتح صندوقا منها تجد أنه يحوي صندوقا آخر بداخله، وهذا الصندوق بداخله صندوق أصغر وهكذا"⁴¹.

وعليه فنحن مطالبون بالبحث داخل هذه العلب عن الأنساق الحادثة لشروط الحيوية والحراك التاريخي لها. فهي جملة العناصر المكونة للبناء الذي لازال طور الاكتمال، لذلك يتناسب مصطلح نظرية مع تنظير un théorème وهي تعني: "الاقتراح المنطقي الذي يتبعه اقتراح آخر"⁴² ووردت كلمة نظرية فيما يقول محمد الدغمومي في سياقات متفاوتة. "أ- دلالة عامة يكون فيها مدلول "النظرية" مرادفا لكلمة أخرى مثل معرفة، أفكار أو حصيلته من التصورات بغض النظر عن وجود نسق أو نظام لها.

ب- دلالة نسقية نسبية تعني مادة فكرية تنتسب إلى ناقد بعينه أي ما يمكن أن يعتبر وحدة ينتجها شخص فرد أو مجموعة أفراد ينتمون إلى مدرسة أدبية، فالنسقية هنا موجودة نسبيا بوجود علاقات بين عناصر تلك المادة الفكرية.

ج- دلالة نسقية تعني وجود أفكار لها خصوصية ومرجعية، سواء وصلت درجة النظرية "بمعناها الدقيق أو بقيت فقط تسمية لمشروع نقدي قائم الذات يمتلك تميزه عن غيره، ويتم من خلالها الإحالة إلى مناهج نقدية معروفة أو إلى اجتهادات مفكرين وفقا لما تركوا مشروعا نقديا له أتباع وشرح"⁴³

وعليه فالنظرية بهذا التوضيح تحيلنا على حالة البناء، والبناء مجموعة نظم مجتمعة لا تحقق الاكتمال بقدر ما تهدف إليه، لأن العناصر المعضودة فيما بينها قد تحقق الانسجام الجمالي وقد تتطلب التعديل، ذلك أن كل بناء/نظر معرفي ينعطف باتجاه ما، يحتاج إلى ما يجعله بناء آخر نتيجة التحول، إنها نسبية: "التسمية قابلة للتمييز ومنتجة لمعرفة لا تكرر معرفة سابقة"⁴⁴

أمر النسق Système ونظرية الأنساق التي ترجمها البعض بالمنظوماتية la systémique النسق هنا مجموعة العناصر المتألفة وتعنى تحديدا مايلي:

- 1- وجود مجموعة عناصر.
- 2- تتوزع العناصر في كليتها إلى:
 - أ- عنصر مركزي (نواة، قطب، بؤرة رئيسية).
 - ب- عناصر فرعية (أطراف، حواف، أجزاء ملحقة).
- 3- وجود مجموعة علاقات.

4- تتوزع العلاقات في كليتها إلى:

أ- علاقة أو علاقات العنصر المركزي مع الطرف (مركز/أطراف).

ب- علاقة أو علاقات العناصر الفرعية فيما بينهما (أطراف/أطراف).

ج- علاقة أو علاقات النسق في جملة مع ما هو خارج عنه وعادة البيئة أو الأنساق الأخرى (نسق/أنساق أخرى)⁴⁵

إن المنظوماتية تحيلنا إلى النظام *ordre*، والنظام أخص من النسق فهذا الأخير يحمل طابعا كليانيا، والنظام يشمل العلاقة الرابطة المتممة للوصل بين العناصر المتآلفة، وغالبا ما يكون النظام على المستوى الإجرائي الإوالي ذا طبيعة آلية ميكانيكية فهو حامل لمتضمن سلطوي بينما النسق أليق بالطابع التنظيري العام فهو بهذا يعني: "طريقة تفكير في الأنساق ومكوناتها"⁴⁶.

وعليه فالنسق يستوعب النظام لكن الأخير لا يعبر الأول مطلقا والأنساق إما أن تكون مفتوحة *ouverte* أو مغلقة *fermée* وتكون الأنساق المفتوحة: هي تلك التي تنفتح على ما هو خارج ومحيط بها فتتخبط معه في عدد من التفاعلات والتبادلات. أما الأنساق المغلقة فتبقى بعيدة عن مثل هذا الانفتاح فهي لا تتقوم إلا بالاعتماد الكلي على نفسها...⁴⁷ وعليه فالنسق بهذا المعنى ينفذ على البيئة الأصلية أو قد يتأقل ضمن بيانات أخرى فينشأ التفاعل البيئي للأنساق بين المركز والأطراف. وهذا ما يسمى عادة بالتثاقف.

هذا الإطار الذي يحقق فاعلية النسق في المجتمع وخارجه، وهو ما يطلق عليه "شميدت" بالتفاعل التواصل شرط أن يترسخ النسق اجتماعيا ذلك أن النسق اجتماعي في المحصلة أو حامل لقيم اجتماعية/بيئية ومن ثمة تتفرع الأنساق الجزئية لتكوّن المعيار النسقي العاضد للحمة التكامل النسبي.

وتشييد الأنساق ينطلق تحديدا من:

- مفهوم النسق بإعادة تشييد معارفنا ومشاريعنا التواصلية لنقل: "بأن الهدف الأساس لمصلحتنا ينتقل من الموضوعات إلى السيرورات ومن الهوية إلى الاختلاف ومن الحقيقة إلى المحتمل"⁴⁸

- مفهوم الملاحظة باعتباره أنساقا نسبية تعمل على بناء النموذج الافتراضي وبالتالي يتجاوز بناء التفكير مع ملاحظة القيود التي يتعرض لها الخطاب الطبيعي (القيود البيولوجية، النفسية، الثقافية) لتحقيق السيرورة التأويلية للمعرفة وتحقيق التواصل النفعي.

و لقد استفادت أطروحة هابرماس من المنعطف اللغوي كثيرا، و لعل كارل أوتو آبل يقر بهذا المنعطف حيث يقول: " وبهذا المعنى نكون نحن الاثنين ورثة التغيير الألسني التأويلي في الفلسفة المعاصرة "49 وذلك لأن هابرماس أراد تجاوز الأطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والفعل والممارسة "50 وبالتالي يقترح تخلص علم الاجتماع من العلاقات القائمة على الوعي إلى تحويله إلى فرع من فروع علوم الاتصال لأن فعل التواصل يعيد ترتيب العالم المعيش القائم على العلاقات البينية للأفراد وهنا يصبح: " التواصل الاجتماعي ضرورة علمية لكل تفكير اجتماعي "51 وهذا يتطلب ما أسماه هابرماس التداويلات الشاملة و عليه فقد ربط هابرماس بين التواصل والعالم المعيش: " ويرى أنه لكي توجد هذه المعرفة المشتركة لا يكفي أن تكون للفاعلين وجهات نظر متقاربة أو حتى وحي بهذا التقارب ذلك أنه يتكلم عن المعرفة المشتركة حين تكون مكونة لاتفاق ما وهذا الاتفاق يتحدد بالاعتراف المتداوت لادعاءات الصلاحية والقابلية لكي تكون موضوعا للنقد والاتفاق يعني بأن الأشخاص المعنيين يقبلون صلاحية معرفة ما، أي قدرتها على الالتزام التداوتي "52 هذا التداوت في الحقيقة يتجاوز نسق الذات لأن الذات ترى في عالم أكبر منها في شبكة تبادل لامتناهية وعودة هابرماس على اليومي أو المعيش جاء كرد فعل على البنيويات الوظيفية .

وعليه فإن التواصل لا معنى له خارج العالم المعيش يقول: " سأقوم بشرح ظاهرة العالم المعيش ومن أجل الإجابة عن هذا المطلب يؤسس له من خلال التواصل ليس الاعتبار بتتبع التحليل الشكي والتداولي للفعل الاجتماعي سابينه أولا انطلاقا من هذه الظاهرة المحللة اليوم يتطلب كيف العالم المعيش كأفق يبقى دائما يحرك الأفعال التواصلية "53 فالعالم المعيش عنده مكمل للفعل التواصل و عليه فإن هابرماس يحاول تقديم رؤية جديدة: " لفهم العالم المعاصر من خلال التعريف الجيد الذي يراه منشطرا إلى عالمين: الأول يخص العالم المعيش الذي تقوم ببنياته على اللغة والتواصل والثاني يخص عالم الأنساق الذي يخضع بالأساس للعقلنة الحسابية التي تتغير بالوظيفة و الأدوات والفعالية "54

هوامش الدراسة

1- مجموعة من الدارسين، فلسفة النقد والفلسفة في الفكر العربي والغربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2005، ص 62.

-محمد نور الدين أفاية، الحدائث والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس. أفريقيا الشرق 12 الطبعة الثانية 1998. ص: 49.

3- المرجع نفسه . ص: 48.

- 4- المرجع السابق . ص :55.
- يورغن هابرماس ، بعد ماركس ؛ ترجمة محمد ميلاد . ترجمة حسن صقر . دار الحوار سوريّة . ط1 . 2002. ص : 2225.
- 6- المرجع السابق . ص : 225.
- 7-المرجع نفسه . ص: 225.
- يورغن هابرماس ، العلم والتقنيّة ك"ايدولوجيا" ، ترجمة :حسن صقر . منشورات الجمل .ألمانيا ط1 2003.ص 44؛8.
- 9- هابرتماركوز ، الإنسان ذو البعد الواحد ،ترجمة :جورج طرايبيشي ،منشورات دار الآداب.بيروت ط3 1988. ص:13.
- 10- محمد نور الدين أفايت . المرجع السابق . ص : 54.
- 11-هابرماس ، العلم والتقنيّة ك"ايدولوجيا " . ص : 146.
- علي عبود المحمداوي . الإشكاليّة السياسيّة للحدّاث . من فلسفّة الذات إلى فلسفّة التواصل هابرماسأنموجا . 12منشورات الإختلاف .دار الأمان .الجزائر المغرب . ط1 2011. ص : 148إلى 150.
- 13-مجموعة مؤلفين ، فلسفّة النقد ونقد الفلسفّة . ص : 49.
- هربرت ماركوز .العقل والثورة .هيجل ونشأت النظريّة الاجتماعيّة .ترجمة فؤاد زكريا .دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر مصر ط1 2000. ص : 349.
- 15- مجموعة مؤلفين . فلسفّة النقد ونقد الفلسفّة . ص:59.
- يورغنهابرماس .القول الفلسفي للحدّاث . ترجمة فاطمة الجيوشي .منشورات وزارة الثقافة . سوريا 1995.ص: 17716.
- 17- .المرجع نفسه .ص:30.
- 18- المرجع نفسه. ص :50.
- 19- مجموعة مؤلفين . فلسفّة النقد ونقد الفلسفّة . ص :59.
- عمر مهيب ، إشكاليّة التواصل في الفلسفّة الغربيّة المعاصرة . منشورات الإختلاف . الدار العربيّة للعلوم 20.المركز الثقافي العربي . الجزائر -لبنان .المغرب . ط1 2005. ص :360.
- أبو النور حمدي أبو النور حسن .يورغنهابرماس ، الأخلاق و التواصل .دار التنوير للطباعة والنشر مصر . ط1 2009. ص: 134 .
- 22-المرجع نفسه . ص : 134.
- 23-Jürgen Habermas, théorie de l'agir communication . tome 1 (rationalité de l'agir et rationalisation de la société)édition fayard France 1987. Page :173
- حسن مصدق ، يرغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت ، النظريّة النقديّة . المركز الثقافي العربي .المغرب لبنان 24.ط1 2005. ص :110.
- 25- مجموعة مؤلفين . فلسفّة النقد ونقد الفلسفّة . ص:169.
- مجموعة مؤلفين . التواصل نظريات ومقاربات . ترجمة عز الدين خطابي زهور حوتي . منشورات عالم التربية . ط2 2007. ص :8.
- 27-voire la communication . 8eme édition . 2008.pqge 31.32.33.
- 28-مطاع الصفدي ، نقد العقل الغربي . ص :207.
- 29- حسن مصدق.المرجعالسابق . ص : 113 .
- 30- Dictionnaire encyclopédie quilet . Paris " 1977, page : 585.
- 31- أحمد المتوكل ،الوظيفيّة بين الكلمة، النمطيّة، دار الأمان، المغرب، ط1، 2000، ص 72.

- 32- المرجع نفسه، ص 53.
- 33- أحمد بوحسن، نظرية الأدب (الأدب، القراءة- الفهم- التأويل) دار الأمان، الرباط، ط2، 2004، ص 129.
- * مصطلح بلور، فوكو.
- 34- عبد السلام حيمر، في سوسيولوجيا الخطاب (من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل/الشركة العربية للأبحاث والنشر بيروت، ط1، 2008، ص، ص 361-362.
- 35- philippenémo ; l'homme structural. Editions Crossett et fasquelle 1975, page 47.
- 36- إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ترجمة محمد حسين غلوم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت مجلة عالم المعرفة، العدد 244، ص 69.
- 37- عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 66.
- 38- أحمد بوحسن، مفهوم النسق، كتاب جماعي/المفاهيم تكونها وسيورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 2000، ص 82.
- 39- إيان كريب، النظرية الاجتماعية (من بارسونز إلى هابرماس)، ص 72.
- 40- anatolrapoport . la théorie modern des système un guide pour faire face aux changement in revuefrançaise de sociologie édition de .l.n.r.s. paris 1970.page : 23.
- 41-إيان كريب ، المرجع السابق. ص : 72.
- Ibid., page 23. -42
- 43- محمد الدغموي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط1، ص 121.
- 44- المرجع نفسه، ص 122.
- 45- محمد القاري، سيمانيّة المعرفة المنطقيّة (منهج وتطبيقه) مركز الكتاب للنشر، ط1، 2002، القاهرة، ص 106.
- 46- c.Westcherhman. Qu'est ce que l'analyse pour les systèmes. traduit de l'américain par b. Et A. beblane. Page 17.
- 47- محمد القاري، المرجع السابق، ص 107.
- 48- أحمد بوحسن، نظرية الأدب (قراءة الفهم ، التأويل)، ص 145.
- كارل اوتو آبل ، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس . منشورات الاختلاف .المركز الثقافي العربي .الدار العربية للعلوم الجزائر لبنان المغرب .ط1 2005. ص : 23.
- الزواوي بغورة .الفلسفة واللغة ، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة .دار الطليعة بيروت ط1 2005. ص : 20950.
- 51-المرجع نفسه ص: 210..
- 52- المرجع نفسه . ص : 209.
- 53-Jürgenhabermas .ibid tome 2.page 130.
- 54-حسن مصدق .المرجع السابق. ص : 114.